

سور من العصر العباسي :

أطباء الخلفاء العباسيين

للإستاذ صلاح الدين المنجد

- ١ -

—>>><<<—

كان أهل جنديسابور يمتنون بالطب . وكان لهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن الأكاسرة . ذلك أن سابور لما تزوج ابنة القيصر فيليبس بعد افتتاحه انطاكية بنى لها مدينة على شكل قسطنطينية ، وهي مدينة جنديسابور ونقلها إليها ، فانتقل معها من كل صنف من أهل بلدها ممن هي محتاجة إليه ، ومنهم أطباء أفاضل . فلما أقاموا فيها ، بدأوا يملكون أحداثاً من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم ، حتى رزوا في الفضائل ، وصار أناسٌ يفضلون طريقتهم على اليونانيين والمهند ، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جموا فيها كل حسنة . ولم يزالوا كذلك حتى جاءت الدولة العباسية ، فأصبح أهل جنديسابور أطباء للخلافة والخلفاء ما عدا قلائل منهم (١) .

وقد كان هؤلاء الأطباء من أهل جنديسابور يتلون منزلة كبرى في كل مكان . وكان وجودهم في بلد ما سبباً لكساد الأطباء الآخرين . وقد ذكر الجاحظ عن أسد بن جاني الطبيب البغدادي أنه أكسد مرة . فقال له قائل : السنة وبثة والأمراض ، قاشية ، وأنت عالم ، ولك سبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة . فن أين توثى في هذا الكساد ؟ قال : أما (واحدة) فإنني عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب . واسمي (ثانية) أسد . وكان ينبغي أن يكون صليبا ومرابلا ويوحنا ... وكنتي أبو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون (أبو عيسى) (وأبو زكريا) ... وعلى رداء

قطن أبيض ، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود . (وأخيراً) لفظي لفظ عربي ، وكان ينبغي أن تكون لفتي لغة أهل جنديسابور (٢) .

والحق أن الخلفاء حضلوا هؤلاء الأطباء . وكانت أسرة بختيشوع ذات مكانة كبرى عندهم ، ومنها كان أطباءهم ووزراؤهم ومنها كان أيضاً الأطباء المحترفون ، وأطباء البيمارستانات ، ومعلمو الطب والفلسفة (٣) .

* * *

أول من تقدم باحضار رأس هذه الأسرة إلى بغداد ، هو المنصور . فإنه لما بنى مدينة السلام ببغداد سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة أدركه ضعف في معدته وسوء استمرار ، وقلة شهوة ، وكان كلما عالج الأطباء ازداد مرضه ، فتقدم إلى الربيع بمجموعهم ، فلما اجتمعوا قال لهم المنصور : أريد من الأطباء في سائر المدن ، طبيباً ماهراً . فقالوا : ما في عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ؟ فهو ماهر في الطب . فأمر المنصور بإحضاره ، فأفذه العامل بجنديسابور إلى حضرة الخلافة بعد ما امتنع عن الخروج ، ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان وأموره التي تتعلق به هناك . واستصحب معه تلميذه إبراهيم وعيسى . فلما وصل إلى مدينة السلام أمر المنصور بإحضاره . فلما أحضر دعا للمنصور بالفارسية والعربية . ففجب المنصور من حسن منطقته ومنظره ، وأمره بالجلوس ، وسأله عن أشياء أعجبه عنها بسكون . فقال : قد ظفرت منك يا جورجيس بما كنت أطلب . وخبره بإبتداء علته ، وكيف جرى أمره منذ ابتداء مرضه . فداواه حتى برى ، وعاد إلى الصحة . فأُنزل في أجمل موضع من دوره ، وأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل . وأهدى إليه ثلاث جوار روميات حسان مع ثلاثة آلاف دينار . فأنكر جورجيس أمرهن وقال لتلميذه عيسى : يا تلميذ الشيطان ألم أدخلت هؤلاء إلى منزلي ؟ ردهن إلي أحمابهن . فأعادهن . فسأله المنصور لم رددت الجوارى ؟ قال : لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء في منزلي ،

(١) الخلا (ليدن) ص ١٠٩ .

(٢) انظر مقالة مايرر . ف ز محاضر جلسات الأكاديمية الروسية للعلوم مجلد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٠ . ترجمة الدكتور عبد الرحمن يدوي في كتاب : التراث البيروني في الحضارة الإسلامية ١٩٤٠ .

(٣) تاريخ الحكماء (ليك) ص ١٣٣ .

وكان أبو قريش طبيب المهدي . وكان يعرف بميسى الصيدلاني ، ولم يكن طبيبا ، وإنما كان سيدلانيا ضعيف الحال جداً ، فتشكت حظية للمهدي ذات يوم ، وتقدمت إلى جاريتها بأن تخرج القارورة إلى طبيب غريب لا يعرفها . وكان أبو قريش بالقرب من قصر المهدي . فلما وقع نظر الجارية عليه أرتته القارورة ، فقال لها : لمن هذا الماء ؟ فقالت : لامرأة ضعيفة . فقال : بل للسكة عظيمة الشأن ، وهي حبلي بملك ! وكان هذا القول منه على سبيل الرزق . فانبرفت الجارية من عنده وأخبرت الحظية بما سمعته منه ، ففرحت فرحاً شديداً ، وقالت ينبغي أن تضي علامة على دكانه حتى إذا صح قوله اتخذناه طبيبا لنا . وبعد مدة ظهر الحبل ، وفرح به المهدي فرحاً شديداً ؛ فأنفذت الحظية إلى أبي قريش خلمتين فاخرتين وثلاثمائة دينار . وقالت : استمن بهذا على أسرك ، فإن صح ما قلته استصحبناك . فمجب أبو قريش من ذلك وقال : هذا من عند الله ، لأنني ما قلته للجارية إلا وقد كان هاجساً من غير أصل . ولما ولدت الحظية ، وهي الخيزران ، موسى الهادي ، سُرَّ المهدي به سروراً عظيماً . وحدثته جاريته بالحديث ، فاستدعى أبا قريش وخطبه ، فلم يجد عنده علماً بالصناعة ، إلا شيئاً يسيراً من علم الصيدلة . إلا أنه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستخضه وأكرمه غاية الإكرام وحظي عنده ، وخاصة عندما علم أنه عتق^(١) .

واستبفاه الهادي ، وظل مكرماً عنده . وعندما مرض الهادي جمع الأطباء وكان فيهم أبو قريش ، فقال لهم : أنتم تأكلون أموالاً وجوائزى وفي وقت الشدة تتناقلون عني . فقال له أبو قريش : علينا الاجتهاد ، والله يهب السلامة^(٢) .

ثم استدعى له بختيشوع بن جورجيس من جنديساور ، فداواه وشفى . ثم سكادت له الخيزران فأعاده المهدي إلى جنديساور^(٣) .

وكان ممن حظي عند الهادي الطيفورى التطيب ، وكان

لأنما معشر النصارى لا تزوج أكثر من امرأة واحدة ، فمادامت المرأة حية فلا تأخذ غيرها . فحسن موقع هذا من الخليفة ، وأسر في الوقت أن يدخل جورجيس إلى حظاياهم وحرمه بلا إذن ، وزاد موضعه عنده .

وظل جورجيس يخدم المنصور حتى مرض سنة اثنتين وخمسين ومائة مرضاً صعباً . وكان المنصور يرسل إليه في كل يوم يتعرف خبره . فلما اشتد مرضه أمر بحمله على سرير إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره وسأله عن حاله . فخره جورجيس بها ، وقال له : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدى لأنظر أهلى وولدى ؛ فإن مت قبرت مع آبائى . قال له : يا جورجيس اتق الله وأسلم ، وأنا أضمن لك الجنة . قال جورجيس : قد رضيت حيث أبائى ؛ في الجنة أو النار . ثم خلف بين يدي المنصور تلميذه عيسى ، ومضى إلى جنديساور ومعه عشرة آلاف دينار وخدام ، فوصلها حياً^(٤) .

وحل عيسى محل جورجيس . فأخذ يسطر يده في التشارر والأذية ، خاصة على الأساقفة والطارنة ، ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم . وكان فيه شرارة وطمع فلما خرج المنصور في بعض سفراته ووصل إلى قرب (نصيبين) كتب عيسى إلى مطران نصيبين يهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمه . وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليظة ثمينة لها قدر ، وكتب في كتابه : أليس تعلم أن أسر الملك في يدي ، إن أردت أمرضته ، وإن أردت شفيتها . فاحتال المطران في التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال وأقرأه الكتاب ، فأرسله الربيع إلى الخليفة ، فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى ، وتأديبه ، ونفيه ، ففعل به ذلك^(٥) .

ثم إن المنصور سأل عن جورجيس ليؤتى به . فامتنع لضعفه وأنفذ إلى الخليفة تلميذه إبراهيم . فقربه المنصور وأكرمه وخلع عليه ، ووهب له مالا ، واستخلصه لخدمته . ولم يزل في الخدمة إلى أن مات المنصور^(٦) .

(١) عبون الأنباء ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) تاريخ الحكماء ص ٤٣١ .

(٣) الصدر الثاني ص ١٠١ .

(٤) عبون الأنباء ج ١ ص ١٣٤ ، وتاريخ الحكماء ص ١٦٠ .

(٥) تاريخ الحكماء ص ٥٤٨ .

(٦) عبون الأنباء ج ١ ص ١٢٥ .

جبرئيل . قال : أى شئ تعرف من الطب ؟ قال : أبرد الحار ، وأسخن البارد ، وأرطب اليابس ، وأجفف الرطب . ففتحك الرشيد وسر . وشرح له حال الصبغة . فقال جبرئيل : إن لم يسخط على أمير المؤمنين فلها عندى حيلة . قال له الرشيد : ما هي ؟ قال : تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى تعمل ما أريده ، وتعمل على ولا تعجل بالسخط ، فأمر الرشيد بإحضار الجارية ، فخرجت ، وحين رآها جبرئيل أسرع إليها ونكس رأسه ، وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكتشفها ، فارتجعت الجارية ، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها . فقال جبرئيل : قد برأت يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد للجارية : ابسطي يدك بمنة ويسرة ، ففعلت ، فمجب الرشيد وكل من كان حاضراً ، وأمر لجبرئيل في الوقت بمخمسة ألف درهم ، وأحبه ، وجعله رئيساً على جميع الأطباء^(١) .

وكان عمله يقوى ويملو ، حتى أن الرشيد قال لأصحابه : كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب فيها جبرئيل ، لأني أفضل كل ما يسأني به ويطلبه مني . فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم . ومنذ يوم خدم الرشيد إلى أن انقضت خمس عشرة سنة لم يمرض الرشيد ، حفظى عنده حفلة كبرى^(٢) .

ونستطيع أن نعلم حال هذا الطبيب وأبوه وجده من كلمة له قالها لآبراهيم بن المهدي : « إن عيش جبرئيل ، وبختيشوع أبيه ، وجورجيس جده ، لم يكن من الخلفاء ، وإنما كان من الخلفاء ، وولاء العهد ، وإخوة الخلفاء ، وعمومتها ، وقراباتها ، ووجوه موالها ، وقوادها . ولي أبوان خدما الخلفاء وأفضلوا عليهما ، وأفضل عليهما غيرهم ممن هو دونهم . وقد أفضل على الخلفاء ، ورفعتني من حد للطب إلى المعاشرة والسامرة ، وليس لأمر المؤمنين أخ ولا قرابة ولا قائد ولا عامل إلا وهو يداريني إن لم يكن مائلاً بمحبته وشاكراً لي ، على علاج عالجته به ، ومحضر جميل حضرته له ، ووصفته وصفاً حسناً عند الخليفة فنفعه^(٣) » .

صروح الدين المشهد

(له تبة)

- (١) تاريخ الحكماء - ١٣٤ .
- (٢) تاريخ الحكماء - ١٣٥ .
- (٣) المصدر السابق - ١٣٩ .

حاذقاً ، وكان متطبه ومرهبه في رضاعه وطفولته وكبره . وهو جد إسرائيل بن زكريا الطيفورى طبيب الفتح بن خاقان^(١) .

أما الرشيد ، فقد أعاد ببختيشوع ؛ فقد مرض سنة ١٧١ هـ . من صداع لحقه ، فقال ليحيى بن خالد : هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئاً . فقال له يحيى : لما مرض أخوك الهادي ، أرسلوا إلى جنديسابور ، فأحضروا رجلاً يُعرف ببختيشوع . فقال الرشيد : كيف أعاده وتركه ؟ قال لما رأى والدتك ، والطبيب عيسى أبا قريش يحسدانه ، أذن له بالإنصراف إلى بلده ، فأمر الرشيد بحمله . فورد ببختيشوع ودخل على الرشيد فداواه . وأكرمه الرشيد وخلع عليه خيامة سنية . ووهب له مالاً وقرأ ، وقال له : تسكون رئيس الأطباء ، ولك يسمون ويطلقون^(٢) .

ثم حل جبرئيل بن ببختيشوع عند الرشيد محل أبيه . وقد خص بادی . أمره بمجمر بن يحيى ؛ وذلك أن جعفر هذا مرض ، فتقدم الرشيد إلى ببختيشوع بن جورجيس بأن يخدمه . وكان من أدب الطبيب إذا كان خاصاً بالملك أن لا يخدم أحداً من أصحابه إلا بأمره ، ولما أفاق جعفر من مرضه قال لبختيشوع : أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه . قال له ببختيشوع . لست أعرف في هؤلاء أحذق من ابني جبرئيل . وهو من أمهر من في الصناعة . فقال : أحضرنه . فلما أحضره شكاه إليه مرضاً كان يُخفيه ، فدبره في مدة ثلاثة أيام وبرأ . فأحبه جعفر مثل نفسه وسيره رئيس الأطباء ، وكان لا يبصر عنه ساعة ، ومعه يأكل ويشرب^(٣) .

وقد اتصل جبرئيل بالرشيد بسبب حظية له . فقد كان للرشيد حظية فتن بها ، تمطت ذات يوم ورفقت يدها ، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها . والأطباء يمالجونها بالتمريخ والأدهان فلا ينفع ذلك شيئاً . فقال الرشيد لجعفر بن يحيى : قد بقيت هذه الصبية بملها . قال له جعفر : لي طبيب ماهر ، وهو ابن ببختيشوع تدعوه وتخطبه في معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة في علاجه . فأمر بإحضاره . ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال :

(١) عيون الأنباء . ج ١ - ١٥٣ .

(٢) تاريخ الحكماء - ١٠١ ، وعيون الأنباء . ج ١ - ١٢٦ .

(٣) عيون الأنباء . ج ١ - ١٢٧ .